يتسلق كل منها ذروة لاستقبال أنوار الضحى وأوائل شعاع الشمس

تلك سانحة من الدهر ولت ولن تعود ما لم نستعدها بعشرات الأعوام جهود من يذكرون أن جميع هذه الهياكل القزمة ، وقد بدأت تدب فيها الحياة ، إنما هي هيكل جبار واحد جرعه سيف واحد وتسجى طوال الأجيال جثة واحدة في قبر واحد

لا يضع للأمة دستورها الحقيق الا من مثلوا سريرتها وثقافتها شاملة لروح المذاهب والعناصر كلها ؛ وما أدري أن بين عباقرة الشرق العربي أحياء وأمواتا من سجن روحه بين جدران طائفته وحطم جناحي عبقريته في قفص إقليمه متكراً وطن فكرته الواسع الأرجاء ...

هنالك تحت ظلال الأرز نصب لم يزل يهتف من أعلى ذرى لبنان بقوله :

أنا مسيحي ولي الفخر بذلك ، ولكنني أهوى النبي العربي الكريم ، وأحب مجد الاسلام وأخشى زواله . إنني أسكن المسيح شطراً من حشاشتي ومحمداً الشطر الآخر

أنا شرقي ولي الفخر بذلك ؛ ومهما أقصتني الأيام عن بلادي أظل شرقي الأخلاق ، سوري الأميال ، لبناني العواطف

ذلك هو نداء جبران ! فما ذا تجيبه يا فوزي ؟

أفأنت شاعر الأمة المشردة ؟ أفأنا تمازجت في روحك كل عظمة من وحي أنبياء الشرق جميعهم ، ومن إلهام عباقرته وفروسية أبطاله في كل زمان ومكان ؟ ...

أفترضى أن يضرب حولك من لبنان نطاق يوقفك في طريق النهضة وقفة تمثال أودنيس في جبيل وباعال وباخوس بين أعماد بعلبك المحطمة ؟ ...

لا وحقك يا فوزي ، ما أنت في تقدير أخيك الذي قاد أوائل خطواتك نحو قمة الخلود ، وفي تقدير كل نافذ لروحك ومدرك لعظمتك إلا المثل الأعلى للوطنية الحقة التي عشت من أجلها شريداً ومت من أجلها شهيداً ...

اليوم لا ترى حولك إلا فئة قليل عديدها تطوف ممجدة فيك الشاعر المبدع الكبير ، ولكنك سترى غداً أفواجاً من كل عنصر ومن كل قطر عربي تتوارد اليك لتحيي فيك بطلاً من طليعة الفيالق الذي حطم سلاسل الأمة بتحطيم أصنامها والقضاء على أرباب شركها وأوهامها

فيلكس فارس

محمد بن جعفر الكتاني

بمناسبة مرور عشر سنوات على وفاته

للأستاذ محمد المنتصر الكتاني

تمهيد

في تاريخ الرجال كثير من الخلاف يكاد يعجز الباحث والمؤرخ عند ما يريد التوفيق — وتاريخ رجال الغرب ورجال الشرق في هذا سواء — فبينما أنت تقرأ عن خالد مثلا أنه ولد في القرن الثاني إذا بك تجد في تاريخ آخر أنه مات في القرن الرابع ، ثم هو نفسه تارة يصوره لك بعض المؤرخين في صورة العابد العالم الثقة الصدوق ، وحيناً تقرأ عنه عند غير المؤرخ الأول أنه لم يكن بالعالم ولا الثقة وإن هو إلا كذاب مضل . وفي كتب التراجم أمثلة لهذا النوع كثيرة .

ويريد جمع من النقاد معرفة السبب فتعييهم المعرفة ويعلمهم تعداد الأسباب والاحتمالات فيقفون عندها دون جزم بواحد منها

وعندي أن لذلك أسباباً كثيرة أهمها :

(١) فقدان الثقة في كثير من المترجمين . إذ هؤلاء يكتبون — عمداً — ما توحيه إليهم أغراضهم وإن خالفت ما يعرفون

(٢) جهل بعضهم بحالة المترجم ، فهم إذا سئلوا عنه حملهم الاعتداد الكاذب بالنفس أن يجيبوا بصفات لو قدر وعاش المسؤول عنه وسمعها لنفاها وأنكر أن تكون فيه ؛ وقد يضطر هذا المجيب لكتابة ما أجاب به فيزيده تنميقاً وتزويراً في جمل مغرية مشوقة يستر بها تضليله وكذبه .

(٣) الخصومة المذهبية . فترى المؤرخ في هذه الحالة يهتم اهتماء مريباً بالبحث عن النقائص ، حتى أنه ليجهد نفسه إلى حد الإعياء ليخرج له معايب من قصص وحوادث تافهة لا يؤبه لها عادة . وكم نحسن الظن في هذا الخصم المذهبي لو اعتنى بالمزايا اعتناءه بالنقائص ولكنه لا يعرج له على مزية ولو كانت كوضح الشمس ، وبالعكس الحب المذهبي ، فبقدر ما يخفي الأول من مزايا ومحاسن يستر هو الثاني العيوب والمخازي .

(٤) الاستسلام لاحدى عاطفتى الحب والبغض ، فذاك صديق لمؤرخ أو سلف لصديقه توجب عليه المجاملة والاطراء المتبادل ن يخضع لمقتضيات هذه الصداقة فيُحسّن القبيح ويقبّح لحسن ويعرف المجهول ويجهل المعروف ، وبالعكس لو كان المترجم دواً له أو سلفاً لعدو ؛ وقد يكون الحامل على الحب أو البغض غير صداقة والعداوة

(٥) الخوف من ذي نفوذ أو سلطان ، فهو إذا تكلم بالحقيقة ذّب وأهين فيتحاشا هذه الاهانة وذاك العذاب — إذ لم يكن ن الكلام يد — بالتقية متأوّلا على أنها مذهب لكثير من وائف المسلمين إن لم يكن ديناً فتديناً ! وقد يستغني عن التأويل . هذا السبب الخامس لم يكد يحار منه أحد من مؤرخى المتقدمين لمتأخرين

٦) الجبن الأدبى أو يسمونه بفقدان الشجاعة الأدبية ، فهو إذا كلم خاف ألا يقبل كلامه أو يتهم فيه بغرض ، ومن خصائص ا الجبان الأديب الخوف من النقد لحد الهلع ، وإن تحمس يوماً تحم هذه الأوهام وكتب شيئاً لايجرؤ أن يوقعه باسمه الصريح يكتفى بالرمز ؛ وهذه العلة هى داء كثير من الثقات فى هذا صر لو تغلبوا عليها لأنتجوا وأفادوا

وأزيدك شيئاً وهو أنى لا أرى علاجا لهؤلاء أنفع من وجوب سار الشروط المطلوبة فى رواة الحديث من عدالة وضبط رفة فى مؤرخى الرجال ، فكما أن المحدث لاتقبل روايته إذا فقد أحد الشروط الثلاثة فكذلك المترجم لايلتفت لكلامه إلا عرفت ثقته وعدالته ومعرفته بالرجل الذى يترجم له معرفة د سندها ومصدرها ؛ وبهذا فقط تسلم الأعراض من الأغراض فظ الحقوق فلا يوضع رفيع ولا يرفع وضيع

لهذه الأسباب التى جعلتها كقواعد جامعة لما لم أذكر من ، ولغيرها سقطت قيمة كثير من كتب التراجم قديماً وحديثاً . از الحديثة منهـا (والحمد لله الذى لا يحمد على شر سواه) ن فى أساليب الطعن والغمز واللمز ببراعة لايفطن لها الكثير لنـاس إلا قارئ عنى بها عناية خاصة أو قارئ أتيحت له فة دخائل جامعيها ونواياهم . أضف إلى هذا مافيها من تراجم لم يعرفوا بين عشيرتهم حتى بالطلب قد أغدقوا عليهم من بحور ما غمرهم ومن جبال السنة ما دك كواهلهم دكا ، ومن صفات النبل والكرم ما أصبحوا به ملائكة تعوزهم الأجنحة إلا أن معرفة مرافقيهم بهم قصّتها ، ومن ضروب الاصلاح والارشاد ما يشرحه العارفون بلغتهم على النقيض من ظواهر اللفظ والمعنى ، وهنا يجمل المذهب القائل بأن لكل[1] لفظ ظهراً وبطناً وحداً ومطلعاً .

وبعد فهذه ترجمة إمام كبير عرفه النـاس قبلى وترجموه لـكن باختصار وعلى غير هـذا الأسلوب ، تربطنى به صلة هى صلة الوالد بالولد ، بل صلة الروح بالجسـد ؛ ولـكى يطمئن قارئى ويهدأ روعه أعاهده عهداً أدين بوفائه ألا أكون أحد أولئك المترجمين الستة ؛ وسأحمل نفسى على تناسى هذه الصلة الكريمة زمناً ؛ وسأعنى بالحق المجرد ولو كان على أو عليه مقتصراً على ذكر حياته — دون تحليل — فى شئ من التفصيل وتاركاً كثرة تلك التعاليق الفضفاضة التى اعتادها الناس اليوم والتى إن دلت على شئ فإنما تدل على نفس المؤرخ أكثر مما تدل على نفسية المؤرخ له ، ولا يفزع إليها غالباً إلا من فقد مادة القول فى أحوال من يترجمه وماجرياته . وفى اعتقادى أن ذلك مما يشوه الحقائق التاريخية ويغطيها بحجاب كثيف يعسر على الناقد النزيه تمزيقه ويقصى القارىء عن تفهم الأشياء بعقله لا بعقل سواه غير متأثر ببيئة أو مذهب

وقد رتبت حياته على فصول ، فأذكر أولاً أسرته ثم نسبه فنشأته فشيوخه فتلاميذه ، معرجاً على وصف خلُقه وخلْقه ومذهبه ومعارفه وثناء الكبار عليه ومدائح الشعراء فيه وتعلق الملوك به ، ثم أرجع فأتحدث عن رحلاته ومؤلفاته وشرح العلماء لها أو ترجمتها أو نقدها وأختم الترجمة بحادثة وفاته ورثائه ونقله فذكر مترجميه فأوهام بعضهم فمصادر الترجمة

وقد أخالف هذا الترتيب أو أسهب فى فصل وأختصر فى آخر مضطراً فى الاسهاب والاختصار لما بيدي من ثروة المادة أو فقرها

---

(١) ورد هذا المعنى خاصاً بآى القرآن فى بضع أحاديث مرفوعة أخرجها الطبرانى فى معجميه الكبير والأوسط والبزار وأبو يعلى ، صحح الحافظ نور الدين طريقاً منها على شرط الصحيح ونقله السيوطى تحسين حديث الأول في الكبير وموقوفه على ابن مسعود عند الطبرانى أيضاً ومرسله عن الحسن البصرى عند أبى عبيد فى فضائله وأبى نصر السخرى فى الأبانة وانظر معناه عند الحافظ الطحاوى فقد رواه مرفوعا فى مشكل الآثار ج ٤ ص ١٧٢

أسرته

تنحدر أسرة الامام ابن جعفر من سلالة الفاتح بن الفاتح ادريس بن ادريس الطلبي الهاشمي الحجازي ثم تشعب بطوناً وأفخاذاً حتى تنحصر فى ملك زواوة الكتانى يحي بن عمران

كانت فاس مقر أسلافه فى ظلال ملوك دولتهم الادريسية التى ملكت [١] مائتى سنة وثلاث سنين سوى شهرين تقريباً وكان عملها [٢] بالمغرب من السوس الأقصى إلى مدينة وهران وقاعدة ملكهم مدينة فاس ثم البصرة ، وكانوا يكابدون مملكتين عظيمتين ومتغلبين كبيرين هما دولة العبيديين بمصر وأفريقيا ودولة بنى أمية فى الأندلس ، وكانوا ينازعون الخلفاء إلى درك الخلافة العظمى ويقعدهم ضعف سلطانهم وقلة مالهم بالنسبة إلى هاتين الدولتين

وفى سنة ٣١٧ تغلب موسى بن أبى العافية السفاح البربرى على جميع بلاد المغرب بعد حروب وفتن طالت وأزمنت بينه وبين الأدارسة انتهت أخيراً بانتصاره والانتقام منهم انتقاماً خسيساً فقتل كثيراً وذبح كثيراً ومن أفلت منهم أجلاهم عن بلادهم وأخرجهم من ديارهم مغلوبين على ملكهم مطرودين عن دار عزهم التى بناها أسلافهم وفروا بأجمعهم إلى قلعة [٣] حجر النسر فتبعهم السفاح إليها وشدد عليهم الحصار وحاول استئصالهم والقضاء عليهم لولا تفريع رؤساء المغرب وأكابر دولته له إذ قالوا « أتريد أن تقطع دابر أهل البيت من المغرب وتقتلهم أجمعين ؟ هذا شيء لا نوافقك عليه ولا نتركك له » فخاف قولهم « ولا نتركك له » واعتبره تهديداً بالثورة عليه فارتحل عنهم لفاس وخلف عليهم قائده أبا الفتح التسولي فى ألف فارس يمنعهم من التصرف [٤]

وقد ذكر الامام المقرى فى كتابه الكنور أسماء جماعة من الأدارسة الذين فروا من قلعة حجر النسر لهذا الحصار المحنق الذى تركه عليهم ابن أبى العافية ، وذكر المواضع التى فروا إليها ، فكان من بينهم جد أسرة الإمام الملك يحي بن عمران . ولفظ المقرى : « ثم فر إلى زواوة الكتانى أمير المؤمنين [١] يحي بن عمران بن عبد الجليل بن يحي بن يحي بن محمد بن إدريس »

وما أن وطئ يحي بن عمران هذا تراب زواوة حتى بايعه أهلها ولقبوه بأمير الناس . يؤخذ هذا من كلام ابن جزى في مختصر البيان حيث عرف الكتاني يحي وهو يتكلم عنه بملك زواوة أمير الناس . ومن كلام المقري حيث نعته بأمير المؤمنين بل صرح ببيعة قبائل زواوة ليحي العلامة الشريف الزكي المدغرى قال فى درته : خرج هذا الجد — يعنى يحي — من فارس مع أبناء عمه واستقر معهم فى حجر النسر ثم انتقل إلى جبل زواوة حوز الجزائر فاراً بنفسه وبويع بذلك الجبل وسمى أمير الناس . ونقل عنهم هذا جماعة من متأخرى المؤرخين [٢]

ويدل على وجود هذه الإمارة أو هذه الدولة التى لم أعرف من ملوكها غير يحي بن عمران ما خلفت من معاهد وآثار فى القطر الجزائرى لا تزال ماثلة إلى اليوم مما لا يكون عادة إلا من أثر الملوك والدول . ومن هذه الآثار مسجد سيدى الكتاني بقسطنطينية ، قال عنه مؤرخ الجزائر الأستاذ احمد توفيق المدنى : هو من أجمل وأبدع مساجد القطر الجزائرى . ومنها مدرسة سيدى الكتاني التى بجانب المسجد قال عنها المؤرخ المدني : ولا تزال إلى يومنا مدرسة علم [٣] . وذكر فى النبذة أن لها أوقافاً وناظراً ومدافن لبعض أهل العلم

ومما سبق من النقول والأدلة على إمارة الكتانى يحي يظهر خطأ العلامة القاضى محمد الطالب ابن الحاج إذ يقول عنه فى كتابيه الأشراف ونظم الدر : وكان يعرف بأمير الناس مع كونه لم تنقد له ولاية إذ لم أقف على من ذكره من الأمراء . وإذا علمت أن حجة القاضى بن الحاج فى نفي الامارة عن يحي إنما هى عدم وقوف على من ذكره من الأمراء علمت وهن هذه الحجة بوقوف غير على من ذكره منهم كابن جزى الكلبي والمقرى والشريف المدغرى — وكلهم أقدم منه — وغيرهم ممن نقل كلامهم ؛ على أن قو القاضى : ولعل ذلك — يعنى شهرة يحي بالكتانى — لظهو الخباء من الكتان أيام إمارة بعض أسلافه ما يشعر باضطرابه ف نفى هذه الامارة إذ المعروف عند كافة من أرخ للعائلة — و

(١) الاستقصا ج ١ ص ٨٩

(٢) الأنيس المطرب ج ١ ص ١٤٤ ط الوطنية

(٣) هى حصن شاهق منيع بسوماته قرب جبل العلم من المغرب الأقصى قال صالح بن عبد الحليم فى الأنيس المطرب بناه محمد بن ابراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس رضى الله عنه وقال ابن خلدون فى العبر احتطه كبير الأدارسة ابراهيم بن محمد بن القاسم .

(٤) العبر ج ٤ ص ١٧ وج ٦ ص ١٣٥ — الاستقصا ج ١ ص ٨١ الأنيس المطرب ج ١ ص ١٢٢

(١) وفى نسخة أمير الناس

(٢) الدرر البهية ج ٢ ص ١٠٩

(٣) كتاب الجزائر ص ٢٣٣

كثير سيأتي ذكر بعضهم — أن يحيى هذا هو أول من استبدل خيام الصوف والشعر بالكتان أيام امارته هو لا إمارة بعض أسلافه كما يزعم ابن الحاج ويؤكده إجماع المؤرخين — وابن الحاج منهم — على أن يحيى بن عمران أول من لقب بالكتاني لهذا السبب

وفي بحر القرن السادس في دولة السلطان المرشد عبد المؤمن ابن علي الموحدي رحمه الله رجع أسلافه من زواوة إلى المغرب الأقصى واستوطنوا مدينة شالة [١] وقيل بل استوطنوا قبيلة بني الحسن ، ووفق الامام في النبذة بين القولين بأن قبيلة بني الحسن كانت إذ ذاك من عمالة شالة فهي في حكم المحل الواحد . وهو توفيق وجيه ، وتسمية الممالك باسم قواعدها استعمال شائع بين كل الناس منذ القدم ، ويجوّز في النبذة أن يكون الراحل الأول من زواوة هو الشريف محمد بن عبد الله بن هادي بن أمير الناس الكتاني يحيى وأن يكون ولده الشريف أبا بكر حفيد حفيد الكتاني الأمير

وفي سنة ٦٥٦ أو ٦٥٤ كما ذكر جماعة من المؤرخين ، وقال الشريف [٢] الفضيلي سنة ٦٦٦ أو ٦٦٤ انتقل أسلاف الامام رحمه الله من شالة إلى مكناسة الزيتون ، وأفاد مؤرخ لا أعرفه ! إن المتنقل الأول إلى مكناسة هو الشريف موسى بن أبي بكر بن محمد

واشتهر منهم بهذه المدينة علماء أجلة وفقهاء مهرة وعارفون كبار ترجم لبعضهم مؤرخ البيت المالك النقيب ابن زيدان في تاريخ مكناس

وفي آخر القرن التاسع [١] كما حقق الامام رجع من مكناس إلى فاس مدينة الآباء والجدود أول قادم منهم وهو الشريف محمد بن قاسم بن عبد الواحد ونزل بحي عقبة بن صوال وبقيت بها منهم فرقة انقرضت في أواخر القرن الثاني عشر وهم أولاد الشريف احمد بن علي بن احمد ولم تزل فاس عشهم إلى الآن سوى أفراد اختاروا السكنى بغيرها من مدن المغرب وآخرين طوح بهم الزمن إلى السنكال وصميد مصر ودمشق

وكان أسلافه في كل هذه المدن التي حلوا بها كقبائل زواوة وتلمسان [٢] وضواحيها وشالة ومكناس الذروة والسنام لشهرتهم بينهم بالدين المتين والتقوى والعلم والفقه والشرف المتواتر

قال ابن خلدون في مقدمة العبر عن شرف بني ادريس — وآباء الامام منهم — إنه قد بلغ من الشهرة والوضوح مبلغاً لا يكاد يلحق ولا يطمع أحد في دركه إذ هو نقل الأمة والجيل من الخلف عن الأمة والجيل من السلف

وقال العلامة القاضي محمد الطالب ابن الحاج في نظم الدر واللآل : واشتهر هنالك — زواوة أولاده — الملك الكتاني يحيى — بصراحة الشرف ، وظهروا ظهور النار على الشرف . قال ثم انتقلوا من زواوة إلى بني الحسن من عمالة شالة ومنها لمكناسة الزيتون وكان لهم فيها الصيت الشهير بصراحة النسب وعلو المكانة وعظيم الحظوة عند ملوك بني مرين ، ومنها انتقلوا إلى فاس ومن لدن انتقلوا إليها وأهلها يعظمون قدرهم ، ويعدون في المحافل فخرهم ، ويثبتون تواتر شرفهم ويتنافسون في مصاهرتهم ، ويتفاخرون بمجاورتهم ومصاحبتهم

« له بقية » محمد المنتصر الكتاني

---

(١) ويسميها بعض المؤرخين بسالا القديمة موقعها على ميلين من البحر لى ضفاف وادي أبي رقراق الذي يتصل بمدينة سالا الحديثة وهناك مصبه ، النهر ، يرجع تاريخ بنائها إلى عهد قديم جداً اختلفوا فيمن أسسها هل برير سكان البلاد الأصليون ؟ أم الفينيقيون ؟ أم الرومان ؟ أم اسكندر و القرنين ؟ أم أفريقش الحميري ؟ أم القرطاجنيون ؟ بكل قال جماعة واتفقوا لى أنها بنيت قديماً إذ جاء وصفها عن الرحالين قبل الاسلام بنحو اثنى عشر رناً تقريباً ووجد في الحفريات الأخيرة من الآثار البربرية القديمة والفينيقية الرومانية ما يشهد لهذا القدم ، خربت في عهد الوندال الكوطيين إلا العتاس عليهم تخريبه وفتحها عقبة بن نافع الفهري لما أتى المغرب للمرة ثانية سنة ٩٢ ، وعلى يده أسلم أهلها أولا ثم ارتدوا . وفي سنة ٩٠ حها موسى بن نصير وأجبر أهلها على الرجوع للدين الحق ثم ارتدوا وبقي ملها في أرجوحة بين الايمان مرة والكفر مرات إلى أن قيض الله لهم ي، الفاتح الأكبر إدريس بن عبد الله المحض عليهما السلام ففتحها فيما فتح من دائن المغرب عنوة في القرن الثاني بعد أن أخرج منها دولة برغواطة الزنادقة على يد إدريس هذا تفتحت أفئدة أهلها أخيراً لقبول نور الهداية والتوحيد كباقي بلاد المغرب

كان لشالة شأن في دول الاسلام وقد استعملت لبعضهم كقاعدة للملك برت وخربت مراراً ، وفي سنة ١٢٠٥ تم خرابها — بفظائع وقبائح ل المؤرخ بوجندار : يخجل القلم لذكرها — على يد السلطان يزيد بن محمد ملوي قال بوجندار : ولم يبق اليوم من معالمها ومراسمها إلا ما صار مرعى مواشي والدواب ووكراً للصدى والبوم والغراب

(أنظر كتابي شالة وآثارها ومقدمة تاريخ رباط الفتح)

(٢) الدرر البهية جـ ٢ ص ١٠٩

(١) المعروف عند المؤرخين أن رجوعهم منها كان في وسط القرن العاشر ، لكن الامام رد هذا بأدلة قطع بها

(٢) قال المؤرخ الشريف محمد بن أحمد الكتاني في كتابه التنبيه إن الكتانيين في عصره وهو العصر الثاني عشر سكنوا تلمسان وضواحيها فيما سكنوه من المدن ، وأضرحة بعضهم هناك مشهورة